الفصل الثانى

الشيخ ابراهيم اليازجى فى عصره

١ ـ حياته

ولد الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجى فى بيروت فى الثانى من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٤٧ م فى بيت هو موئل اللغة والأدب ، وتخرج فى مبادئ العلم وأصول اللغة على أبيه ثم قرأ على نفسه ، فنال بجدّه وذكائه الغاية البعيدة ، ونظم الشعر فى ريعان الشباب ، فجاء شعره برهانًا على الإتقان وعلى أنه وَرِث الخيال عن أبيه ، فرق أدبه وصفا خاطره وتطايرت شهرته فى جودة النظم[1] ، فاحتكم إليه فريق كبير من الأدباء وورد عليه من رسائل الشعراء الشىء الكثير ، حتى أصبح مجلسه لا يخلو من بحث شعرى أو أدبى ، على أنه رأى فى ذلك ما يشغله عن سواه ، فهجر النظم وعكف على المطالعة ، ودرس الفقه الحنفى على المرحوم الشيخ محيي الدين اليافى أحد مشاهير الأئمة فى ذلك الحين ، فنال منه حظًّا وافراً .

وفى السنة ١٨٧٢ م عهد إليه تحرير جريدة « النجاح » ، فظهر من اقتداره ما بعدت معه شهرته ، وعمد الآباء اليسوعيون يومئذ إلى ترجمة الكتاب المقدس ، فاستعانوا به وفوضوا إليه تنقيح العبارة من حيث الإنشاء والسبك وانتخاب الألفاظ للمعنى المراد ، فكان ذلك سببًا فى درسه اللغة العبرية والسريانية ليلبس عبارة الترجمة المعنى الأصيل بصدق وأمانة .

فصرف فى ذلك الكتاب نحو تسع سنوات يتحرى المعنى ويضع الكلمة اللائقة التى تنطبق على المعنى الصحيح ، فلا يعتورها خلل فكرى أو لفظى .

(١) انظر المنتخبات .

حتى أخرجه بحلة أنيقة على أفضل ما يرجى بلاغة وصوغاً وفصاحة مفردات ، ولا سيما العهد القديم الذى أطلقت له اليد فى تنقيحه ؛ فجاءت ترجمة حسنة الديباجة صافية اللغة ناصعة العبارة .

وكان كلما أرهقه تعب الكتابة والتأليف مال إلى الراحة استجماماً ، فيصرف أوقات فراغه فى الرسم والحفر والموسيقى ، وقيل : إنه كان دون الرابعة عشرة من عمره حين صنع أول تقويم « روزنامة » عربى [١] وقد أولع فى مطلع شبابه بالشعر ثم ما لبث أن انصرف عنه إلى النثر ، فجال فيه جولات موفقة حتى أصبح فيه فارساً من أسبق فرسانه وعلماً من كبار أعلامه ، وسارت له بسطة علم وقدم راسخة فى اللغة بحقيقتها ومجازها ، فبز المتقدمين والمتأخرين فى دراستها وحذقها ، وتبوأ منصة البيان وجلال الأسلوب ، متفرداً بمعرفة أصولها وفروعها واشتقاق كلمها وشواردها وأوابدها ، وصرفها ونحوها وبديعها وبيانها ، وعروضها ، وقوافيها ، وجزلها وسهلها ، وأحاط بأخلاق العرب وعاداتهم وأنسابهم ووقائعهم وأخبارهم رواية ودراية ، فعنت له صاغرة وأنالته عنانها ، فأركض جواد قلمه فى ميدانها ، فجال وصال وبرع وأبدع ، مستعيناً بتوقد ذهن فطرى وذاكرة مرهفة الشعور ، وعت فاستوعبت حتى صار حجة يعوّل عليه ، ومرجعاً فى حلّ عقد اللغة العربية وجلاء مبهماتها ، وهو العارف بموارد الكلام ومصادره ، والبصير بجيده وسفسافه ، والطويل النفس فى بحوثه اللغوية ، البعيد غور الحجة ، فلم يتورع عن أن يحمل حملة عنيفة على كتابات الأقدمين والمحدثين ، فخطأهم وأقام الدليل على سلامة نقده بالحجج القواطع والبينات النواصع ، غير تارك زيادة لمستزيد ، فكان يصوب سهم يراعته إلى تلك الخطيئات أو السقطات عن قلب مملوء بالشجاعة ، غير متوار وراء معاقل المخابئ ، فيصيب المرمى ، ويرسل مباضعه إلى الجراح الوسخة العفنة فيشفى المعضل منها غير عابئ بأنين المتألمين ودمدمة المدعين [٢] .

---

(١) « النفائس » الاحتفال بنقل رفات المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى . بيروت مطبعة النفائس سنة ١٩٠٦ ص ٢٢ .

(٢) « الشدياق واليازجى » للأب أنطوانيوس شبلى طبعة بيروت ص ٥ .

٢ ـ مشاركته فى أحوال العصر سياسيًّا

لم يكن مترجمنا حريصًا على اللغة فحسب بل تناول القومية العربية وعمل فى سبيل إحيائها وإذكاء نارها فى قلوب النشء، وكان يرمى إلى أن يرى البلاد العربية متمتعة باستقلال تام، رافعة عنها النير العثمانى، يدلنا على ذلك انخراطه فى سلك الجمعية العلمية السورية التى أنشئت فى بيروت سنة ١٨٦٨ م فكانت تتلى فى اجتماعاتها قصائد عامرة ومقاطع شعرية مثيرة تتحدث بأمجاد العرب.

وفى أول اجتماعاتها دوّى أوّل صوت للحركة العربية والدعوة إلى القومية فكان صوت شيخنا الذى أنشد قصيدة هز بها أوتار القلوب وحركها لتنظر إلى حاضرها ملتفتة إلى الوراء وما كان لها من مجد تليد وعزّ عريق قال فى مطلعها:

تنبهـوا واستفيقوا أيهـا العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب[1]

وتجاوب صداها فى البلاد العربية عامة، ثم أتبعها بقصيدة ثانية مطلعها:

دع مجلس الغيـد الأوانس وهوى لواحظهـا النواعس

وقد تطرق فيها إلى العمائم والقلانس والمساجد والكنائس مما حملنا على إغفالها فى المنتخبات، ومدارها تحريض العرب على السعى للاستقلال متخذاً الجبل الأسود نموذجًا حيًّا للاستقلال والدفاع عن كيانه وانسلاخه عن الدولة العثمانية[2].

ومن قراءة القصيدة «دع مجلس الغيد» نرى نفسًا ثائرة آلمها ما غشى البلاد من فساد إدارى واجتماعى، آل إلى موجة سأم وكراهية عصفت بالنفوس فتمنت زوال الحكم العثمانى.

وقد نشرت القصيدتان غفلا من التوقيع، فاهتمت بهما حكومة الآستانة وبأمثالهما وسعت جاهدة لتعرف الناظم فراح سعيها عصفة ريح[3]. فما تقدم

---

(١) راجعها فى المنتخبات.

(٢) «العروبة ومواكبها» قوافل ج ٢ لمحمد جميل بيهم – مطبعة الكشاف بيروت ص ١٥.

(٣) «المختارات السائرة» لأنيس الخورى المقدسى طبع دار العلم للملايين بيروت ص ١٦٣.

نفهم نزعة الشيخ العربية وحبه الخالص لها وما كان يجول فى خاطره من ميل شديد إلى استقلال البلاد العربية جملة والتفلت من قيود العثمانيين الذين طغوا وبغوا فأيموا النساء ويتموا الأطفال وأفقروا البلاد، وعقاوا العقول وهشموا الألباب وساروا بالناس ولا سيما العرب كأنهم سائمة .

وصور مترجمنا حالة البلاد بقوله : « وماعداها من مدن سوريا القديمة قد عفاها تقلب الأحوال ، فلم يبقَ منها إلا رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها الآن قرى حقيرة، منتشرة فى هاتيك الربوع الداثرة، يأوى إليها شراذم من بقايا الأمم الغابرة ، كأنها لم تبق إلا لتشهد بما تجنيه الحروب من الدمار ، وما يحدثه تفريق الكلمة والشقاق من التباب والبوار »[١] .

وما قدمنا هذا إلا لنبين مشاركة الشيخ إبراهيم فى أحوال عصره السياسية ، ومن أحب لغته أحب قومه وسعى إلى رفعتهم وإنهاض شأنهم ، واللغة مفتاح سجن الأمم المغلوبة ، فإذا أضاعت لغتها فكأنها فتحت أبواب سجنها بيدها لتدخله .

٣ ـ أخلاقه وصفاته

كان رحمه الله ربع القامة عصبى المزاج ، حاد الذهن ، ذكى الفؤاد ، سريع الخاطر ، لا يمل مجلسه ، يطرب للنكتة ويضحك، عفيف النفس ظاهر الأنفة إلى حد الترفع ، شديد الحرص على كرامته ، كثير الإباء ، ولا سيما بما يتعلق بالارتزاق ، يعد مجاملة الناس فى الكسب تملقًا ، ولولا ذلك لعاش فى سعة وبسطة من العيش ، ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته[٢] ولم يرغب قط فى الوظيفة وخدمة الحكومة فقد انتدب فى سنة ١٨٨٢ م ليكون قائم مقام على مدينة زحلة فرفض[٣] .

ولقد اشتهر بأدبه الرفيع وخلقه الكريم وفسحة رقعة صدره ، وبرصانته

---

(١) راجع المنتخبات .
(٢) « النفائس » ص ٢٤ .
(٣) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٥ .

ورزانته ، وضنانته بسمعته وكرامته من التبذل والتسفل ، يترفع عن المهاترة والمقاذعة والمخاشنة فى مجاهداته ومجادلاته ، يجلّ خصمه إجلاله لنفسه ، وينتقد الخطأ محترمًا صاحبه ، متجاوزاً هجر الكلام الداعى إلى التنابذ والتنافر ، والتقاطع والتدابر ، وجرّ المرء إلى هبوط منزلته وإخلاق ديباجة وجهه . ولعل هذين البيتين يدلاننا على مجمل أخلاقه قال :

ليس الوقيعة من شأنى فإن عرضتْ أعرضتُ عنها بوجه بالحياء نـــدى
إنى آضنّ بعرضى أن يلم به غيرى فهل أتولى خرقه بيدى ؟

٤ ـ برّه بأبيه

لقد أثر عن الشيخ مترجمنا أنه كان برًّا بأبيه الشيخ ناصيف مفاخراً بأدبه وعلمه ، يؤلمه أن ينال أحد قلامة ظفر منه ، فقد نظر فى كتبه وأصلح الخطأ منها وقال إنه اختصرها ، وقام على شرح ديوان أبى الطيب المتنبى ونسبه إلى أبيه ، لأنه كان قد بدأه ، فلم يرغب فى أن يجعل الفضل فيه لنفسه بل احترم إرادة والده وكان قد شرع يعلق على شعر أبى الطيب ولم يواته القدر لإتمامه ، فنظر فيه ابنه مترجمنا نظرة صادقة وقام على شرحه وتفسير أبياته المستغلقة ، وأتبعه بنقد أدبى لشعر المتنبى أزال عنه الزيف وطهره من أدرانه ، واحتال له بتصويب ما خالف اللغة وأوضاعها بلغة سهلة جامعة مانعة ، وفكر رائق وحجة دامغة ، وبدليل ما تقدم ننقل ما قال فى نهاية الديوان[١] « . . وكان أبى رحمه الله قد شرع فى تعليق هذا الشرح على هامش نسخة من الديوان بخطه ، كان يثبت فيها ما يعنّ له من تفسير أو إعراب أو شرح بيت تذكرة لنفسه مع ذكر كثير من وقائع النظم وتراجم بعض الممدوحين وغيرهم مما يسنح له فى أثناء مطالعاته ، إلا أنه لم يتقص فى شىء من ذلك ولا تتبع أبيات الديوان على التوالى وخصوصًا المواضع المستغلقة التى تدعو إلى إطالة الروية والاستنباط مما لم يرضه كلام الشراح

---

(١) « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » . المطبعة الأدبية بيروت ص ٦٢٥ .

obeikandi.com

فيه ، فإنه كان يتجاوزها فى الأغلب ، ويترك موضع الكلام فيها مخرجًا على الهامش ، كأنه كان ينوى معاودة هذا الشرح والتوفر على إتمامه ، ثم لم يفسح له فى الأجل فبقى الشرح على علاته » ويخلص إلى القول أنه أبقى عنوان الشرح باسم أبيه رعاية لكونه هو الواضع الأصيل ، فلم يؤثر أن يتطفل عليه فى نسبة الكتاب وإن تطفل عليه فى التأليف .

ومما يحملنا على إثبات بره بأبيه عدا ما تقدم ، تصديه للردّ على أحمد فارس الشدياق ، وقد خطأ الشيخ ناصيف « والد المترجم » فى عروبة بعض كلمات وردت فى « مجمع البحرين » من أمثال « الفطحل » و « المرابض » ، والناظر فى تلك المناقشة تتجلى له أخلاق الشيخ إبراهيم على صغر سنه وميعة شبابه ، وقد كال له الشدياق السباب ونعته بآلم النعوت وأخبث الأوصاف ، فما كانت غضبة الشدياق إلا لتزيد الشيخ إبراهيم حلمًا ، ولسان حاله يردد :

يزيد سفاهة وأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيبا

وقد ترفع عن مقابلته بالمثل من السباب والشتائم فما أخذته حدّة ولا نزوة[1] .

٥ ـ طعامه وشرابه

قضى الشيخ إبراهيم أعوامه الأخيرة متعففًا بطعامه وشرابه ، يتناول فى الصباح طعامًا خفيفًا ، ويعكف على العمل ، حتى إذا جاء الظهر ، تغذى ودخن « الشيشة » (الأركيلة) ، ونام وقت القيلولة ، ثم يقضى بقية النهار فى عمل لا يتعبه ، فيلاعب بعض معارفه بالنرد ، ويصرف ما تبقى من نهاره بالفكاهات ، وفى المساء يقتصر على كوب من اللبن ثم يستأنف العمل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكان لا يكتب إلا واقفًا أمام منضدة عالية[2] .

---

(١) « الشدياق واليازجى » طبعة بيروت ص ٦ .

(٢) « النفائس » ورواية عيسى إسكندر المعلوف وجرجى نقولا باز والفيكونت دى طرازى .

٦ ــ مواهبه وقرائحه

كان رحمه الله مصوراً متقنًا وحفاراً ماهراً ، وله فى الصناعة اليدوية المقام الأول ، والإتقان فى كل عمل يعمله وحركة يأتيها ، فهو متأنق فى قيامه وقعوده وفى كلامه وملبسه ، وفى مشربه وطعامه ، وفى مشيه كما فى شعره ونثره ، فى خطه وتصويره[1] وعلى الجملة فقد كان رجل ثقافة واسعة ، ورجل فنّ وإتقان ، جنوحًا إلى العزلة المثمرة ، حريصًا على كرامة نفسه ، أبيًّا أنوفًا لا يخلو من كبر وقسوة لاذعة لمن تحرش به على غير حق أو نال منه مغمزاً ، لأنه كان يرى أن قناته لا تغمز لأنه ما كان لينشر ما يكتب إلا بعد رويّة وإعمال فكر ، ومراجعة ما يخط قلمه غير مرّة ، وفى سبيل كلمة واحدة كان يدبج مقالة ليوضح معنى تلك الكلمة . وإن لم يجد للكلمة الأجنبية ما يرادفها بالعربية يثبتها بعد إجرائها على الأوزان العربية كقوله « التأكسد والجمنستيك »

المعلّم

بعد أن فرغ من تنقيح الكتاب المقدّس ، انصرف إلى تدريس اللغة العربية وآدابها فى المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك فى بيروت ، وفى هذه الأثناء اختصر ونقّح كتب أبيه التى سيرد ذكرها فى آثاره ، وكان له جملة من التلامذة الذين أعجبوا به وبأدبه وشغفه فى نقل المعرفة إلى عقولهم وتدريبهم ، وفى طليعتهم الشيخ عبد الله البستانى وشاعر القطرين خليل مطران وتقلا وجبران النحّاس وغيرهم ممّن تأدّبوا عليه ، وبالاطلاع على كتاباته وأبحاثه القيّمة ولا سيما فى مجلّة الضياء ، على أن شهرته لم تقم على التعليم بل على الصحافة كما سنوضحه فى دراستنا هذه ، وعلى معرفة العربيّة وأسرارها كأحد كبار أئمتها ، وانتقاده المتقدمين والمتأخرين .

---

(١) المصدر السابق .

وله رأى باللغة يجدر بنا الإشارة إليه فى قوله من مقال « اللغة والعصر » : « وبديهى أن اللغة لم توضع دفعة واحدة ، وإنّما كان يوضع منها الشىء بعد الشىء على قدر ما تدعو إليه حاجة المتكلمين بها . وقد اختصت هذه اللغة بمزيّة عزّ أن توجد فى غيرها ، وهى أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظى أو المعنوى ، بحيث صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذى لا تكاد تضاهيها فيه لغة ، على كونها من أقلّ اللغات أوضاعًا ، إلاّ أنّها من أكثرهنّ صيغًا وأبنية ، وهو السرّ فى قبولها هذا الاتساع العجيب فضلا عما فيها من تشعّب طرق المجاز » .

فأنت ترى أن الشيخ يقرّ معترفًا أن اللغة لم توضع دفعة واحدة بل أخذت بسنّة النشوء والارتقاء فكانت تتوالد بألفاظها بحسب الحاجة ، وكأنى به يعترف أن اللغة كائن حىّ تنمو بنموّ أبنائها وتقوم على تأدية ما هم بحاجة إليه ، عملاً بسنة الاشتقاق والوضع والارتجال ، ويقول : « لو صادفت — أى اللغة العربية — من أهلها البقاء على عهد أسلافهم من السعى فى سبيل الحضارة وتوسيع نطاق العلم ، لم تقصر عن مشايعتهم فى كلّ ما فاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم إلى مجاراة العصر الحالى » .